

الدّرس اللّساني ومساره التطوري

د. عامر بن شتوح

قسم اللغة والأدب العربي - جامعة عمار

ثليجي - الأغواط - الجزائر

الملخص:

تحاول هذه الدراسة أن تقدم صورة تعريفية للدرس اللساني، مع تتبّع أهم المراحل التي مر بها، حتى يتسنى لنا معرفة المسار المعرفي، الذي سار عليه الدرس اللغوي، بوصفه ركاما معرفيا جديدا، بُنيت عليه عديد النظريات اللسانية الحديثة، كون بناء المعرفة، في أي علم من العلوم، لا تكون إلا نتاجا لسابق، وعليه، فإنّ ما قمنا به ما هو إلا محاولة لرسم وتوضيح معالم الدرس اللساني منذ نشأته إلى غاية منتصف القرن العشرين، مع ظهور محاضرات فرديناند دي سوسير.

Abstract :

This study tries to present a specific definition to linguistics with taking in care the important procedures that passed by in order to know the method of knowledge that linguistics based on Considering it as an accumulation of real knowledge very important. any structure of knowledge whatever the science was it was the product of the previous centuries. Everything has done nowadays is consisted on the precedent. So that all about what it was done from its creation until what we have achieved by us today. I mean from the middle of the twenties century since Ferdinand de Saussure appeared.

التمهيد:

هناك الكثير من الناس من يعتقد بأن ما يميز الإنسان عن سائر المخلوقات الأخرى هو العقل، ضاربين عرض الحائط ميزة النطق، التي لا تقل أهمية عن العقل، وبالتالي، يمكننا وصفه بالمخلوق العاقل الناطق، الذي كرمه الله - سبحانه وتعالى - بهاتين الخاصيتين اللتين أكسبته ملكة لغوية كانت نتاجاً لملكة عقلية منطقية، خص الله بها الإنسان دون غيره من الكائنات الأخرى على مختلف أنواعها. لقد أصبحت هذه اللغة أداة مستعملة بين البشر من أجل عملية التواصل والتفاهم، ونقل الخبرات اليومية مدة من الزمن، دون أن ينتبه بنو البشر إلى هذه الملكة اللغوية، التي أعطته قيمة ومعنى في الوجود الرباني. فاللغة كانت للإنسان فكراً، وبها بات يفكر في هذه الظاهرة، التي ميزته - كما قلنا - سلفاً.

من هنا، بدأ الإنسان يفكر في البدايات الأولى في اللغة، خاصة اللغة التي نطق بها آدم - عليه السلام - لأول مرة على سطح الأرض، إلا أنّ الإنسان - في اعتقادنا - لم يستطع، إلى اليوم، الإجابة عن هذا السؤال. فهناك إجابات متعددة ومختلفة، مردّها إلى: أنّ كل شعب من الشعوب يريد أن يثبت أن لغته هي الأصل الأول للغة البشرية، فالعرب يقولون بأن اللغة تعود إلى أصل عربي، والفرس يرون أنّ الفارسية هي اللغة الأولى، واليونانيون قالوا: إنّها اليونانية، وهكذا.. فهل هذه الآراء تستند إلى حقائق علمية، أم إنّها مجرد تخمينات واجتهادات ظنية؟

إنّ بدايات التفكير في البحث عن أصل اللغة ونشأتها، كان سبباً في نشأة علم يدعى علم اللغة (اللسانيات)، الذي اهتم به الإنسان، كونه وجد أنّ اللغة أداة تواصل متميزة بين أفراد المجتمع الواحد، سواء أكانت هذه اللغة منطوقة، أم مكتوبة، وعلى جهود علماء اللغة القدماء، ظهر علم اللغة الحديث، الذي كان نتيجة حتمية لهذه البدايات اللغوية؛ لأنّه لا يمكننا بناء معرفة ما من الصفر إلا

إذا كانت هناك إرهابات أو أرضية سابقة، يمكننا الانطلاق منها، وما الحاضر إلا نتاج للماضي، فهذا التراكم العلمي والمعرفي هو من أنتج هذا التطور الحاصل في مختلف العلوم الفنون، وعلم اللسانيات أحد هذه المنتجات، التي بدأت تنمو وتتطور من مرحلة إلى أخرى حتى وصلت إلى ما هي عليه اليوم. ننتقل الآن، لنقدم لمحة للمراحل التي مر بها الدرس اللساني عبر مختلف العصور، وكيف كانت نظرة الأمم له.

1. جهود علماء اللغة القدامى:

هناك العديد من الأمم، التي كانت لها اجتهادات ونظرات في دراسة الظاهرة اللغوية، سواء تعلق الأمر بطبيعة اللغة، من حيث النشأة والتطور، أو من حيث القوانين التي تضبطها، وغيرها من الظواهر الأخرى، كما أنه لا يمكننا الحديث عن كل الأمم (مصريون - صينيون - يهود - هنود - إغريق - رومان - فينيقيون.. على الهامش)، بل سنكتفي بذكر البعض منهم، لأن المقام لا يتسع لذلك. البداية نريدها أن تكون مع الهنود، الذين كان لهم فضل السبق في دراسة اللغة، وكان ذلك نتيجة المحافظة على النصوص الدينية، المتمثلة في: كتب "الفيدا" المقدسة عند الهنود، وكذا، حماية اللغة "السنسكريتية" من التحريف. وتجدر الإشارة إلى أن هذه النصوص، التي تناقلها الناس بطريقة شفوية، قد انحدرت من المرحلة الفيدية، حوالي 1200 ق.م، ثم طرأت عليها عدة تغيرات، نتيجة الحقبة الزمنية الطويلة، أدت إلى ظهور عدة لهجات تختلف عن اللغة الأولى، مما دفع النحاة الهنود إلى دراسة اللغة بشكل عام، والأصوات بشكل خاص، وقد تفوقوا في هذا المجال، وبرعوا فيه، سواء أكان من الناحية النظرية، أم الناحية التعليمية، حيث كانت دراساتهم تتمتع بقيمة علمية كبيرة.

وهناك من الباحثين، من يذهب إلى أن البحوث الهندية قد انتظمت في فروع مستقلة، كلّ منها له أهدافه ومناهجه الخاصة به، كاللسانيات العامة، والنحو الوصفي، والفونتيك، والفونولوجيا، والمورفولوجيا، والدلالة⁽¹⁾؛ إذ كان الهنود يعتنون بالنحو عناية خاصة، ويولونه أهمية بالغة، كونه الوسيلة الوحيدة التي تقوم اللسان، وتبعده عن الزلل والخطأ، وهذا ما وجدناه في مقولتهم المأثورة التي تقول: «إنّ الماء هو أقدس شيء على الأرض، والكتب المقدسة أكثر قداسة من الماء، ولكن النحو أكثر قداسة من الكتب المقدسة»⁽²⁾.

ويرى الباحثون أن (بانيني) يأتي على رأس نحاة الهند، الذي وضع كتابه المشهور "الأقسام الثمانية"، الذي جاء على شكل قواعد مختصرة، متضمنة الآراء والاتجاهات المتعارضة، التي كانت سائدة آنذاك⁽³⁾، كما أنه قد وصف القوانين الصوتية والنحوية للغة السنسكريتية وصفا دقيقا؛ فهناك، في بعض الروايات من تقول: إنّ تلقى هذا العلم (النحو) عن طريق الوحي والإلهام. ويرى الباحثون المحدثون من علماء اللغة أن (بانيني) هو خير النحاة الوصفين القدماء⁽⁴⁾.

أما اليونانيون، فكان لهم اهتمام كبير بقضية أصل نشأة اللغة، وكذا بقضايا نحوية متعددة، فهم قد تساءلوا عن طبيعة اللغة، هل كانت ذات نشأة طبيعية أم اصطلاحية؟ كما أن المناقشات التي أثارها الفلاسفة اليونانيون كانت ذات أهمية خاصة، لأنّها مهّدت الطريق لمناقشات أخرى، وعلى رأسها: هل اللغة شيء فوق الطبيعة؛ تلقاها الإنسان من ربه؟.. هل هناك علاقة فطرية بين الدال والمدلول؟⁽⁵⁾

فقضية نشأة اللغة تعدّ من أهم المسائل التي كانت مثار جدل كبير دام عدة قرون بين علماء اليونان، الذين انقسموا في النهاية إلى فريقين: كلّ له رأيه، وحجته التي استند إليها، فهذا الفريق الأول، الذي يتزعمه أفلاطون، يرى أن اللغة من

صنع الطبيعة، فهم يؤمنون بأنّ هناك علاقة طبيعية بين الأسماء والمسميات؛ كون العالم المادي (الحسي) يمكننا إدراكه عبر الأسماء (الدوال)، وبالتالي، تصبح كل كلمة تدل على شيء معين. يقول أفلاطون: «إنّ معرفة الأسماء تعني معرفة الأشياء»⁽⁶⁾، وعليه، يمكننا القول بأن أفلاطون يناقش مسألة جد هامة: هل العلاقة بين الأسماء والمسميات علاقة ضرورية طبيعية، لا يمكننا مناقشتها بأي حال من الأحوال؟ أم إنّ في الأمر رأياً آخر؟ فإذا كان الأمر كذلك، فإنّ هذا يؤدي بنا إلى أن اللغة ما هي إلا عبارة عن إفراز أفرزته الطبيعة، وبالتالي، تكون قد أخذت أصلها من مبادئ خالدة خارجة عن الإرادة البشرية قاطبة⁽⁷⁾.

أما فيما يخص النحو الإغريقي وقواعده، فيعدّ أفلاطون أول من أدلى بدلوه في هذا الباب، فقسم الجملة إلى: إسمية وفعلية، واكتفى بالتمييز بين الأسماء والأفعال، كما رأى أن الأسماء هي العبارات التي تدلّ عن من يقوم بالحدث في الجملة، والأفعال هي العبارات التي تدل على حدث أو صفة في الجملة، وبهذا نجده قد عدّ الأفعال والصفات قسماً واحداً⁽⁸⁾.

أما أرسطو (تلميذ أفلاطون)، قد كان له رأي آخر في مسألة نشأة اللغة وأصلها، فهو يرى أن اللغة تواضع واصطلاح بين بني البشر؛ أي إنّها نشأت نتيجة اتفاق بين أفراد الجماعة اللغوية الواحدة؛ هذا يعني: أنها استحدثت واصطنعت من بني البشر، كعقد اجتماعي، وتالياً، أصبحت نشأة اللغة قضية عرفية تواضعية ليس إلا.

فإذا كان أفلاطون قد قسم الكلام (الجملة) إلى: اسم، وفعل، فإنّ تلميذه قد أضاف إلى هذا التقسيم مفهوم الرابطة؛ ويعني بها: كلّ الكلمات التي تخرج عن نطاق الأسماء، والأفعال، كما اكتشف صيغ الفعل المختلفة في اللغة الإغريقية، وأكد أن التغيرات المنتظمة في أشكال الفعل ترتبط ارتباطاً جد وثيق بمفهوم زمن

حدوئه، وتدلّ على الماضي أو الحاضر أو المستقبل. فأرسطو قد مزج النحو بالمنطق، ومن آثار هذا المزج، أصبحت للقوانين النحوية ما يقابلها من المصطلحات الفلسفية، فمثلاً: عند تقسيمه الكلام، نجده يقابل ذلك التقسيم بمقولاته الفلسفية الشهيرة: (الجوهر) يقابل (الاسم)، و(الكيف) يقابل (الصفة)، و(الكم) يقابل (العدد)، و(الإضافة) تقابل (أفعل التفضيل)، و(الأين) يقابل (الصفة)، و(المتى) يقابل (الزمن)⁽⁹⁾.

أما الرومان، فقد كانت منجزاتهم اللغوية بدرجة أقل، إذا ما قارناها بالجهود اللغوية الهندية، واليونانية؛ إذ الرومان يعتبرون تلامذة اليونان في الدراسات اللغوية، وقد بدأت روما تهتم بمثل هذه الدراسات منذ القرن الثاني قبل الميلاد، إلا أن الخطأ الشنيع الذي وقع فيه الرومانيون؛ أنهم وضعوا لغتهم في الإطارات التي تصورها اليونان للغتهم الإغريقية، ومع ذلك، فقد اتسمت هذه المنجزات بالتواضع والقلّة، من حيث الوصف، والدقة العلمية، والمنهجية، إذا ما قورنت مع سابقتها⁽¹⁰⁾.

ومن بين العوامل التي جعلت الرومان يقبلون على الدراسات بمختلف أنواعها، ظهور حركة نشطة قامت بترجمة الأعمال النحوية والفلسفية والثقافية، من اللغة الإغريقية إلى اللغة اللاتينية، كما كان لحكام الرومان دور كبير في تشجيع هذه الحركة، ناهيك عن إحياء الحضارة اليهودية المسيحية، وإرساء روح التسامح، وحرية التعبير بين أفراد المجتمع الروماني⁽¹¹⁾.

وإذا كان لليونان وللإغريق نحاة وعلماء أجلاء؛ انكبوا على دراسة لغتهم بكل نهم ومحبة؛ من أجل معرفة خصائصها، وأهم قضاياها، وأصل نشأتها، فإنّ للرومان - أيضاً - علماء في النحو، كان لهم الأثر في التأليف اللغوي، ومن أشهرهم على الإطلاق: فارون - (faro)، من القرن الأول قبل الميلاد، الذي وضع كتاباً وسمه

ب : اللغة اللاتينية (de lingua Latina)، بلغ ستة وعشرين جزءاً، لم يصلنا منها سوى ستة أجزاء، وذلك من الجزء الخامس إلى الجزء العاشر، وتناول فارون، في مؤلفه هذا، مختلف القضايا النحوية، حيث قام بتقسيمها إلى ثلاثة مواضيع رئيسية: علم التراكيب (syntaxe)، وعلم الصرف (Morphology)، وعلم أصول الكلمات (etymology). كما تطرّق إلى كلّ القضايا التي طرحها النحاة الإغريق حول: نشأة اللغة، وقضية الطبيعة، والاصطلاح، والقياس، والشواذ...، أما القرن الرابع، فقد ظهر إليوس دوناتوس (aelius donatus)، الذي اشتهر بكتابه الأكاديمي: صناعة النحو (ars Grammatica)، الذي بقي ردحا من الزمن، يدرّس في المدارس حتى القرن السابع عشر الميلادي، ولدينا بريسيان (priscian)، من القرن السادس بعد الميلاد، حيث تميّزت مرحلته بهجرة الباحثين: أصحاب الاختصاصات المختلفة، نتيجة انهيار الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي، فكان (بريسيان) على رأس هؤلاء المهاجرين إلى القسطنطينية، بحثا عن الظروف المواتية لإتمام بحوثهم العلمية، ومكث بها ينشر العلم، ويدرس قواعد النحو اللاتيني⁽¹²⁾.

2. جهود علماء اللغة العرب (في العصور الوسطى)⁽¹³⁾

لقد ارتبطت الدراسات اللغوية العربية بالقرآن الكريم؛ من أجل الحفاظ على هذا النص الشرعي من أيّ تصحيف أو تحريف، لتفشي ظاهرة اللحن بين أفراد المجتمع العربي، نتيجة اختلاطهم مع غيرهم من الأعاجم. ولما بلغ ذلك سيدنا عثمان بن عفان، سارع إلى جمع كل السور القرآنية في دار حفصة بنت عمر، ثم قام بحرقها، وكتب مصحفا جمع به شمل المسلمين، الذي عرف فيما بعد بمصحف عثمان، أو "الإمام". إلا أن هذا المصحف كان ينقصه الشكل والتنقيط، مما أدى إلى انتشار اللحن بين أقوام من غير العرب قد دخلت في الإسلام⁽¹⁴⁾.

ولم يكن الدرس اللساني هو الوحيد الذي ارتبط بالنص الديني عند العرب، بل وجدنا هذا عند أمم أخرى مثل الهنود، الذي ارتبط بكتابتهم المقدس "الفيدا"، حين عملوا على ضبط نصوصه وقراءتها قراءة صحيحة، وكان الشيء نفسه مع الصينيين، الذين كانت دراستهم للنصوص الدينية البوذية، سببا في نشأة المعاجم الصينية، كما كان لليهود في دراسة النحو واللغة من أجل فهم ودراسة كتابهم المقدس⁽¹⁵⁾.

لقد احتفت اللغة العربية - مثل غيرها من لغات العالم - بعدد الدراسات اللغوية، سواء تعلقت الأمر بشقها الصوتي أو الصرفي أو النحوي أو الدلالي أو المعجمي، ولقد كان النص (القرآني) الحافز الأكبر في الحفاظ على لغة الضاد، حين اعتبر وعاء العربية، لتظهر - في أثناء ذلك - جهود أبي الأسود الدؤلي، فكان أول باعج للنحو، وأول وضع لضوابطه، بإشارة من الإمام علي - كرم الله وجهه - ثم بدأ نطاق البحث النحوي يتسع، شيئا فشيئا، إلى أن اشتد التنافس بين علماء المدارس النحوية، وعلى وجه التحديد، بين علماء (البصرة) وعلماء (الكوفة)، باعتبار السبق الزمني⁽¹⁶⁾.

ومن بين أهم القضايا التي تناولها اللغويون العرب: مسألة نشأة اللغة، مثل غيرهم من الأمم السابقة في تناول هذه القضية، «إذ ورث العرب من التفكير اليوناني القديم مفهومي الطبيعة والعرفية؛ اللذين دار حولهما جدال ونقاش كبيران، ولزمن طويل، فانشطروا فريقين: فريقا منهم ينتصر للفكرة الطبيعية الذاتية، وفريقا ينتصر للاتفاق والاصطلاح»⁽¹⁷⁾.

إنّ أول من نادى بفكرة طبيعية اللغة، وأنها توقيفية؛ أي: وحي وإلهام من الله - سبحانه وتعالى -، ولا دخل ليد الإنسان فيها كان (ابن فارس) في كتابه: "الصاحبي"، إذ عقد بابا بعنوان: "القول على لغة العرب. أتوقيف، أم اصطلاح؟"،

يقول فيه: «إنّ لغة العرب توقيف، ودليل ذلك قوله - جل ثناؤه - ((وعلم آدم الأسماء كلّها..)) [البقرة: 31]»⁽¹⁸⁾، ويحاول تقديم تفسير لكلمة "الأسماء" الواردة في الآية الكريمة، «بما روي عن ابن عباس، من أنه كان يفسر الأسماء بأسماء الأشياء، من: نبات، وحيوان، وجماد، وبأنّ الله - تعالى - علم آدم اللغة المألوفة لنا، وألفاظها، واختص الأسماء بالذكر دون الأفعال أو الحروف؛ لأنّها - في رأيهم - أساس اللغات. ولا بدّ لكلّ كلام مفيد من الاسم، في حين أن الجملة المستقلة، قد تستغني عن الفعل والحرف!»⁽¹⁹⁾.

كما نادى - أيضا - بهذا الرأي، العالم اللغوي (أبو علي الفارسي) [ت. 356هـ]، أستاذ (ابن جني)، «الذي يذكر أنّ: أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة، إنما هو تواضع واصطلاح، لا وحي وتوقيف. يقول: «..إلا أنّ أبا علي (يقصد أستاذه أبا علي الفارسي)، قال لي يوما: هي من عند الله، واحتج بقوله سبحانه: ((وعلم آدم الأسماء كلّها (البقرة: 31)»⁽²⁰⁾.

ثم يأتي أبو الفتح، عثمان بن جني، إذ يبدو أنه - أيضا - من أنصار هذا الرأي، ومن الذين يقولون بتوقيفية اللغة، إلا أن يبدو أكثر تردّد بين مفهومي الإلهام والاصطلاح. يقول: «أعلم - فيما بعد- أنني على تقادم الوقت دائم التنقيح والبحث عن هذا الموضوع، فأجد الدواعي والخوارج قوية التجاذب لي، مختلفة جهات التغوّل على فكري»⁽²¹⁾.

أما الذين نادوا باصطلاحية اللغة، فيأتي - فيما نعتقد - من أهل اللغة، ابن جني، الذي وجدناه مترددا إلا أنّ ما جاء في سفره "الخصائص"، يثبت أنّه من أنصار هذا الرأي، فهو يقول بأن اللغة مواضعة واصطلاح بين الناس، إذ قدم ذلك في صورة جميلة. يقول: «كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء والمعلومات، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظا، إذا ذكر،

عرف به مسماه؛ ليمتاز من غيره.. فكأنهم جاءوا إلى واحد من بني آدم، فأومؤوا إليه، وقالوا: "إنسان.. إنسان.. فأى وقت سمع هذا اللفظ، علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق. إن أرادوا سمة عينه أو يده، أشاروا إلى ذلك، فقالوا: يد.. عين.. رأس.. قدم.. أو نحو ذلك، فمتى سمعت اللفظة من هذا، عرف معناها..»⁽²²⁾. إضافة إلى هذا، فهناك جهود أخرى شاهدة على ما قدمه العقل العربي من خدمات للغة العربية، منها صناعة المعجم، حيث يأتي الخليل بن أحمد الفراهيدي، بمعجمه "العين"، على رأس المشتغلين باللغة، والذي يعتبر عمله أول عمل معجمي، رتبته صاحبه على أساس صوتي، طبقا لمخارج الحروف، واستمر هذا النمط في عدد من المعاجم، نذكر منها "تهذيب اللغة"، للأزهري (ت.370هـ)، ولدينا - أيضا - معجم "جواهر الألفاظ"، لقدامة بن جعفر (ت.337هـ)، و"المخصص"، لابن سيده الأندلسي (ت.458هـ)، اللذين رتبا معجميهما حسب الموضوعات، أما معجم "الصحاح" للجوهري (ت.393هـ)، فرتبته ترتيبا هجائيا، وتبعه في ذلك ابن منظور (ت.711هـ) في معجمه "لسان العرب"⁽²³⁾.

3- جهود علماء اللغة في عصر النهضة، والقرن التاسع عشر:

عرفت الدراسات اللغوية في هذه الفترة منحى من نوع آخر، نتيجة عوامل عدة، عملت على ازدهار الثقافة بشكل عام، نذكر من بينها: حركة إحياء التراث اليوناني والروماني القديمين، ورحلات الكشوف الجغرافية، التي بلغ مداها أنحاء أوروبا، ناهيك عن حركة التبشير المسيحي، التي صجبت الكشوف الجغرافية، مما أدت هذه الحملات إلى ترجمة الكتب المسيحية المقدسة إلى لغات البلاد المكتشفة، دون أن ننسى عاملا، يبدو أنه في غاية الأهمية، ألا وهو فن الطباعة، الذي يسر - بدوره - القيام بهذه الدراسات على أكمل وجه، ونشرها بين الباحثين والدارسين في مختلف أنحاء العالم⁽²⁴⁾.

فالدارسون، والباحثون، يطلقون الدراسات اللغوية التي أنجزت في هذا العصر بلسانيات النهضة، التي لقيت إقبالا كبيرا على دراسة اللغات الآرية والشرقية، نظرا لما تحمله هذه اللغات من تراث عريق، ولما تتمتع به من مكانة سامية في نظر المستشرقين، كما تجدر الإشارة إلى أن بعض الباحثين قد نبذوا اللغة اللاتينية المستخدمة في المدارس، ودعوا إلى ضرورة العودة لغة الآداب الكلاسيكية، مثل لغة شيشرون، وفيرجيل، فهؤلاء الباحثون كانوا يتمتعون بكل الحريات والحقوق، مما زادهم شجاعة وصبرا على العمل والمضي قدما في ذلك، عكس ما كان عليه كتاب العصور الوسطى، الذين حرّموا من دراسات الآداب والفنون والفلسفات الإغريقية، التي عدوها وثنية المحتوى، لائكية المقصد⁽²⁵⁾.

في هذه المرحلة سادت فكرة منطقية اللغة، التي ترى أن اللغة، في عمومها، خاضعة لقواعد المنطق، وبالتالي أصبحت القواعد التي تحكم اللغة واحدة، وقد ظهر أول كتاب يتبنى هذه الفكرة لأصحاب مدارس بور رويال⁽²⁶⁾، سنة 1660م، تحت عنوان: "النحو العام والعقل" Grammaire générale et Raisonnée، الذي أُعيد نشره عام 1830م، فهذا النحو تضمن أمثلة ونماذج من اللغات الإغريقية واللاتينية والعبرية، وبعض اللغات الأوروبية الأخرى⁽²⁷⁾.

فهذا وليام جونز (W.Jones : 1746-1794) يأخذ بفكرة: أن اللغات تعود إلى أصل واحد، فاكتشف بأن اللغة السنسكريتية لها علاقة باليونانية واللاتينية؛ إذ يقول: "لكن لها مع الآخرين قرابة جد وثيقة، سواء من حيث الأصول الفعلية أو الأشكال النحوية، حتى إنّ هذه القرابة لا يمكن أن تكون من قبيل الصدفة، وليس هناك أيّ فقيه لغوي يجرؤ على أن ينكر انحدارها من أصل واحد"⁽²⁸⁾.

أما الانجازات التي صاحبت القرن (التاسع عشر)، فقد كانت نتاجا للدراسات السابقة، وإرهاصا لأرضية انطلق منها الدارسون؛ فعلم اللغة، في هذه الفترة، أخذ

في الظهور على صورة نحو تاريخي مقارن، وهذه الدراسات المقارنة أعطت معلومات كثيرة عن التغيرات التي تطرأ على أمراض الكلام الإنساني، غير أن اكتشافها للتغيرات لم يكن على أساس علمي، بل كان مجرد تأملات واستنتاجات، إلا أنها سوف تغدو هذه النتائج، أواخر القرن التاسع عشر، قائمة على الاستدلال العلمي⁽²⁹⁾.

نشأت هذه الدراسات مع اكتشاف اللغة السنسكريتية، التي بدأ علماء اللغة يقارنون بينها وبين اللغات الأوروبية. ويعدّ فرانز بوب (1791-1869) مؤسس النحو المقارن، وقد استطاع أن يستعمل السنسكريتية في أبحاثه، في كتابه "النحو المقارن"، وفيه استنتج قرابة اللغة السنسكريتية باللغات الأوروبية الأخرى، معتبرا إياها اللغة الأم، التي انحدرت منها اللغات الأخرى⁽³⁰⁾.

ما قام به فرانز بوب ليس بالأمر الهين؛ إذ سيعده كثير من علماء اللسانيات رائد المنهج المقارن، بوصفه منهجا علميا قائما على رؤية واضحة المعالم، فقد كان يتتبع الظواهر اللغوية، معتبرا إياها أحداثا طبيعية، مثلما كان يفعل الكثير من علماء الطبيعيات، وعلماء التشريح، والأحياء⁽³¹⁾، في زمانه⁽³²⁾.

وفي منتصف القرن التاسع عشر، ظهرت نظرية "النشوء والارتقاء" أو ما عرف بنظرية "تطور الأنواع"، فكان لهذه النظرية تأثير كبير على علماء اللغة، ممن عاصر عالم الأحياء (داروين)، ذاهبين إلى أن هذه النظرية، ستحلّ الكثير من المشكلات، وعلى إثرها، ظهرت مناهج جديدة تبحث في اللغة، على أسس فلسفية أو تصورات عامة، مقرّة أن ما يحدث للغة من متغيرات، هي نفسها التي تحدث في العالم الطبيعي، ولاسيما عالم الحيوان والنبات. حيث نظر اللغويون إلى اللغات، واللهجات بوصفها كائنات حية؛ يمكن تصنيفها أنواعها، وحصر أعدادها، ما دامت تتطور تطوّر النباتات والحيوانات⁽³³⁾.

فهذا (أوغيست شلايشر)، صاحب المذهب الطبيعي؛ المتأثر بنظرية (دارون) يرى أن اللغة كائن حيّ مستقلة عن الإنسان، محددة بقوانين بيولوجية عامة، قابلة للتطور، فهي تولد، وتعيش لفترة محددة، ثم تهب الحياة لغة أخرى أحدث منها، لتحلّ محلها بعد زمن، وهكذا دواليك، في حركتها وتطورها؛ إذ هي أشبه بشجرة سلالة الإنسان، ومن ثم، أمكن تسمية هذه النظرية، في اللسانيات، بالنظرية "البيولوجية" أو نظرية "السلالة"، حيث اللغة "فكر" معبر عنه بـ "أصوات"، وقد لاقت هذه النظرية اهتماما واسعا لدى معاصري (شلايشر)⁽³⁴⁾.

ويعتبر مذهب همبولدت الألماني (1767-1835) بنظريته (رؤية العالم)، أعظم لساني شهده القرن التاسع عشر، فهو رائد اللسانيات العامة، وأول من قام بدراسة اللغة الكاوية (الأندونيسية)؛ وهي لغة جزيرة "جاوة"، فقد كان لا يهتم بالجانب التاريخي للغة فقط، بل واهتم - أيضا - بالمظهر الآني (التزامني الوصفي) للغات، حيث إنّ اللغة - عنده - هي "نتائج متميّز لروح أمة بعينها"، وأن التعبير الخارجي عن البنية الداخلية للغة، يميّط اللثام عن رؤية العالم. وترتبط مراحل تطوّر أيّ لغة عنده، ارتباطا مباشرا بالعقلية الثقافية، والنظرة المستقبلية العامة للشعب الذي يتحدث هذه (اللغة)، وبالتالي، يكون تطوّر اللغة مرتبطا بتاريخ الثقافة القومية.

ومن هنا، يمكننا القول: إنّ العالم الخارجي من ثقافة تلك الأمم، له أثر في بنية اللغة الداخلية، كما أنّ صعوبة التفاهم بين الناس، مرجعه - بالدرجة الأولى - إلى عدم تطابق رؤية الناس للعالم الخارجي، وعليه، فإنّه لا يمكن للغة أن تكون جديرة بتحقيق ذلك الفهم الكامل، والمشارك⁽³⁵⁾.

وعلى إثر هذا التأثير الشديد بالعلوم الطبيعية، عرّف اللغويون المقارنون "اللغة بأنها: جهازٌ عضوي (Organisme)، مثل باقي الكائنات الحية، تتكون من عناصر،

لها وظائفها المحددة، إضافة إلى كونها - مثل باقي الكائنات الحيّة - تنشأ، وتترعرع، وتكبر، وتشيخ، وتموت⁽³⁶⁾.

4- عصر الدراسة العلمية للغة (البنوية):

مع دخول القرن العشرين - خاصة نصفه الأول -، ومجيء العالم السويسري، فردناند دي سوسير - Ferdinand de Saussure (1857-1913)⁽³⁷⁾، شهد الدرس اللغوي مسارا آخر، يختلف عما جاء به العلماء والدارسون السابقون، من حيث الرؤية، والمنهج، والنضج الفكري؛ على الرغم من أن الدراسات اللغوية السابقة عليه: التاريخية، والمقارنة، تعتبر الأرضية الحقيقية، التي كان لها الأثر الكبير في توجيه الفكر السوسيري. فقد صدر له كتاب بعنوان: محاضرات في اللسانيات العامة (cours de linguistique générale)، بعد موته بثلاث سنوات سنة 1916م، والذي قام بجمع مادته كل من شارل بالي (Charles Bally)، وألبير سيشيهاي (Albert sechehaye)، فجاءت هذه الدراسة أكثر جدة وعمقا، من حيث التعريف، والموضوع والهدف، وسوف تحدث دروسه ثورة لسانية كبيرة عند من كان لهم اهتمام بالدراسات اللسانية، كون ما جاء به يعبر عن رؤية فلسفية واسعة الحدود، تنم عن عقلية متميزة، أعطت للدرس اللساني مكانة بين مختلف العلوم والمعارف، حينما اعتبرت «اللسانيات: الدراسة العلمية للسان البشري»⁽³⁸⁾، ومن هنا، يكون (دي سوسير) قد فهم اللسانيات فهما دقيقا، وحقيقيا، عند استنتاج «أن هدف الألسنية المنفرد، والحقيقي، إنما هو اللغة، منظورا إليها في ذاتها، ولذاتها»⁽³⁹⁾.

إنّه يريد أن يدخل إلى أعماق اللغة، من أجل معرفة أسرارها، وكيفية عملها؛ أي: النظام الذي تعمل به، فهو «أول من أظهر للناس أهمية الدراسة البنوية»⁽⁴⁰⁾، بوصفه، وتحليله لمفاهيمها، ومناهجها، واحتجاجة المقنع بصحتها، وعظيم

فائدها»⁽⁴¹⁾، إنها نظرية مبنية على مجموعة من المبادئ والاعتبارات التي أهلها لأن تصبح نظرية متميزة، تعبّر عن رؤية جديدة، تختلف عما جاء به سابقوه، وإن كانت دراساتهم ممهدة لها.

لقد مثل هذا العالم لأفكاره اللغوية على أساس مبدأ الثنائيات المتعارضة⁽⁴²⁾، التي تحتكم إلى أسس علمية، وأبعاد منهجية⁽⁴³⁾، ذلك أنّ اللسانيات، بوصفها علماً حديثاً، تقوم على الوصف، ومعاينة الوقائع، بعيداً عن النزعة التعليمية، والأحكام المعيارية المسبقة⁽⁴⁴⁾، ولقد حدّد (دي سوسير) مهامها في كتابه: محاضرات في اللسانيات العامة، على النحو التالي:

- تقديم الوصف والتأريخ لمجموعة اللغات، وهذا يعني: سرد تاريخ الأسر اللغوية، وإعادة بناء اللغات الأم في كلّ منها، ما أمكن ذلك.
- البحث عن القوى الموجودة في اللغات كافة، وبطريقة شمولية متواصلة، ثم استخلاص القوانين العامة، التي يمكن أن تردّ إليها كلّ ظواهر التاريخ الخاصة.
- تحديد نفسها، والاعتراف بنفسها⁽⁴⁵⁾.

إنّ ما يمكن تمييزه في اللسانيات السوسيرية، بعد هذه السياحة التأريخية في مسار الدراسات اللغوية، وتطورها التاريخي، عبر رحلة الدرس اللساني، ابتداء من القراءات اللغوية القديمة، خاصة الغربية منها، وانتهاء بالفتوح اللسانية: التاريخية والمقارنة، التي استثمرتها لسانيات (دوسوسير)، حق الاستثمار، جملة من الاستنتاجات، التي توضح الحدود العلمية بين الدراسات النحوية واللسانية القديمة، ودراسات دوسوسير للغة⁽⁴⁶⁾، حيث يمكن إجمالها في الآتي:

- 1- أنَّها نظرية توسم بالاستقلالية، وهذا مظهر من مظاهر علميتها، في حين، أنَّ النحو (Grammaire) التقليدي متّصل بالفلسفة والمنطق، بل خاضع لهما في كثير من الأحيان.
- 2- أنَّها تهتم باللغة المنطوقة قبل المكتوبة، في حين أن علوم اللغة التقليدية تأخذ العكس.
- 3- أنَّها تُعنى باللهجات، ولا تفضل الفصحى كما هي الحال في الدراسة النحوية السائدة من قبل؛ ذلك أنَّ اللهجات، على اختلافها وتعدّدها، لا تقل أهمية عن سواها، من حيث تداوليتها ودلائليتها.
- 4- أنَّها تسعى إلى بناء نظرية لسانية لها صفة العموم، إذ يمكن - على أساسها - دراسة جميع اللغات الإنسانية، ووصفها.
- 5- أنَّها لا تقيم وزنا للفروق بين اللغات البدائية، واللغات المتحضرة، لأنها - جميعها - جديرة بالدرس، دونما تمييز أو انحياز مسبق.
- 6- أنَّها تدرس اللغة بالكلية، وعلى صعيد واحد، ضمن تسلسل متدرج من الأصوات إلى الدلالة، مروراً بالجوانب الصرفية والنحوية، والمعجمية.

الإحالات:

1. أحمد مومن: اللسانيات (النشأة والتطور)، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون - الجزائر، 2002، ص:17.
2. أحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند الهنود، وأثره على اللغويين العرب، دار الثقافة، بيروت، 1972، ص:73.

3. عاطف فضل: مقدمة في اللسانيات للطالب الجامعي، ط.1، دار الرازي للطباعة النشر والتوزيع، عمان - الأردن، 2005، ص: 15.
4. محمود السعران: علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي)، دار الفكر العربي، مدينة نصر- القاهرة 1999، ص 258 .
5. ماريو باي: أسس علم اللغة، تر: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة-مصر، ص: 262.
- 6- ذهبية حمو الحاج: لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، جامعة مولود معمري - تيزي وزو – الجزائر، 2005، ص: 21.
- 7- محمد الحناش: البنيوية في اللسانيات، ط.1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1980، 1: 48، 49.
- 8- أحمد مومن: اللسانيات (النشأة والتطور)، مرجع سابق، ص: 17.
- 9- المرجع نفسه، ص: 19..
- 10- محمود السعران: علم اللغة، مرجع سابق، ص: 261.
- 11- المرجع السابق، صص: 24، 25.
- 12- نفسه، ص 27، 28، وعلم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ص 261.
- 13- العصور الوسطى: يطلق هذا المصطلح على القرون التي شهدتها الحضارة الغربية على المرحلة التاريخية الأوروبية الممتدة بين: 476 بعد الميلاد إلى حوالي 1500 بعد الميلاد؛ أي: منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية إلى بداية النهضة الأوروبية، وتعرف القرون الستة الأولى، التي تلت انحلال الإمبراطورية الرومانية بالعصور المظلمة، وتبدأ من 476م إلى حوالي 1000م. (ينظر: أحمد مومن، ص: 29).
- 14- حسان تمام: الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982، صص: 22، 23.
- 15- كريم زكي حسام الدين: أصول تراثية في اللسانيات الحديثة، الرشاد للطباعة، القاهرة، 2000، ص: 3.
- 16- عاطف فضل: مقدمة في اللسانيات، صص: 19، 20.

- 17- ذهبية حمو الحاج: لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص: 29.
- 18- ابن فارس: الصحاح في فقه اللغة ومسائلها / سنن العرب في كلامها، تج: عمر فاروق الطّباع، دار المعارف، بيروت، ط. 1993، 1، ص: 36.
- 19- إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، مكتبة الانجلو مصرية، 1997، ص: 16.
- 20- عبد الصبور شاهين: في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. 4، 1984، ص: 69.
- 21- ابن جني: الخصائص، تج: عبد الحكيم بن محمد، المكتبة التوفيقية، 1418هـ، 1: 56.
- 22- المصدر نفسه، 1: 54.
- 23- محمود فهمي حجازي: مدخل إلى علم اللغة (المجالات والاتجاهات)، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط. 4، 2006، صص: 187 - 189.
- 24- محمود السعران: علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي)، ص: 265.
- 25- أحمد مومن: اللسانيات (النشأة والتطور)، صص: 46، 47.
- 26- مدارس بور روايال: من أشهر المدارس النحوية التي ظهرت في عصر النهضة، ذاع صيتها في فرنسا وخارجها، تأسست عام 1637م، وحُلّت عام 1661م، نتيجة الصراعات الدينية، والسياسية في فرنسا. ينظر: أحمد مومن، ص: 47.
- 27- المرجع نفسه، ص: 49.
- 28- جورج مونان: تاريخ علم اللغة (منذ نشأتها حتى القرن العشرين)، تر: بدر القاسم، منشورات الجامعة السورية، ص: 160.
- 29- محمود السعران: علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي)، ص: 27.
- 30- ذهبية حمو الحاج: لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص: 35، وميلكا إيفيتش: اتجاهات البحث اللساني، تر: سعد عبد العزيز ووفاء كامل فايد، ص: 49.
- 31- أمثال: تشارلز داروين، الذي اشتهر بكتابه أصل الأنواع سنة 1859م.
- 32- مصطفى غلفان: في اللسانيات العامة (تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها)، ط. 1، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا 2010م، ص: 149.
- 33- محمود السعران: علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي)، ص: 271.

- 34- ميلكا إيفيتش: اتجاهات البحث اللساني، ص: 65، وما بعدها.
- 35- المرجع نفسه، ص: 65-67.
- 36- مصطفى غلفان: في اللسانيات العامة، ص: 156. وينظر: نعمان بوقرة: اللسانيات (اتجاهاتها وقضاياها الراهنة)، ط1، عالم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2009، صص: 31 – 62.
- 37- فرديناند دي سوسير: ولد سنة 1857، بجنيف، وفي سنة 1881، كلف بالتدريس بمعهد الدروس العليا بباريس، مدة 10 سنوات، وفي سنة 1891، عاد إلى جنيف، وشرع في التدريس بجامعتها، توفي سنة 1913، من مؤلفاته: مذكرة في النظام البدائي في اللغات الهندو-أوروبية، وأطروحة تحت عنوان: استعمال المضاف المطلق في اللغة السنسكريتية، وبعد وفاته، طبع له تلامذته محاضراته في كتاب تحت عنوان: دروس في اللسانيات العامة. ينظر: أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1994، initiation à la linguistique française, Sandrine Zuffery et Jacques Moeschler, Arman Colin éditeur 2010, Paris, p:57.
- 38- André martinet, éléments de linguistique générale. Armand colin, 5^édt, paris, 2008, p: 31.
- 39- فيردينان ديه سوسر، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة: يوسف غازي – مجيد النصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، ص280.
- 40- البنية: هي نظام يعمل وفق مجموعة من القوانين (بينما لا تملك العناصر اللغوية إلا مجموعة من السمات، وعليه، فإنّ النظام لا يمتلك شرعيته من سمات العناصر في ذاتها، بل من القوانين المتحكممة في تنظيم تلك السمات، أما خصائصها، فهي:
- 1/ الكلية (Totalité): وهي ما تعرفه العناصر اللغوية من تماسك فيما بينها وانسجام يجعل منها، رغم اختلافاتها، كلا واحدا (ليس للعنصر قيمة في ذاته، وإنما يستمد قيمته من تقابله مع بقية العناصر)
- 2/ التحويل (Transformation): يراد به في النظام: خضوعه لمجموعة من التحويلات، تجري على عناصر اللغة، بحيث تنتج عنها تغيرات جوهرية في أساس النظام كله، والذي يجعل هذه

التحويلات جوهريّة عامة: هو خضوعها لقوانين النظام المطردة، تلك القوانين التي تنضوي فيها كل الوحدات والجمل الممكنة في لغة ما.

3/ الانتظام الذاتي (Autorégulation): يراد من ذلك: أن عناصر النظام لا تستمد وظيفتها من علاقتها بالواقع الخارجي، بل من انتظامها الداخلي، الذي يعمل على شد العناصر بعضها إلى بعض بشكل يبدو فيه النظام ثابتا، مغلقا على نفسه، وإن كان يبدو خاضعا لمبدأ التحويل، ذلك أن ارتباط العناصر بالتحويلات الممكنة فيه، لا يمنع من تماسك عناصره فيما بينها، ومن المحافظة على قوانينها مع ملاحظة أن هذه الخاصية (الانتظام الذاتي)، تظل قائمة في النظام حتى حينما يستقبل عناصر جديدة. ينظر: دبة الطيب: مبادئ اللسانيات البنوية (دراسة تحليلية إبستمولوجية)، جمعية الأدب للأساتذة الباحثين، الجزائر، سنة 2001. وينظر: مصطفى غلفان: في اللسانيات العامة، ص: 255، وما بعدها، كما ينظر: خولة طالب الإبراهيمي: مبادئ في اللسانيات، دار القصة للنشر، الجزائر، ص: 16، وما بعدها.

41- عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ص: 152.

42- تعتبر هذه الثنائيات من أهم المفاهيم التي أعطت للدرس اللساني قيمة كبرى: إذ مثلت الأرضية التي انطلقت منها لسانيات دي سوسير، فلولاها، ما بلغ هذا العلم كل هذه الشهرة وهذا الصدى: (اللغة والكلام = langue et parole، العلامة اللسانية [الدال والمدلول] = signe linguistique [signifiant et signifie]، اعتبارية العلامة = Arbitraire du signe، المنهج التزامني والمنهج الزمني = M. synchronique et M. diachronique، المنهج الوصفي والمنهج المعياري = M. descriptive et M. normative، التلفظ والكتابة = prononciation et Ecriture، العلامة والقيمة = signe et valeur، العلاقات التركيبية والعلاقات الاستبدالية = R. syntagmatiques et R. paradigmaticues. ينظر: مبادئ اللسانيات البنوية دراسة تحليلية إبستمولوجية، ص: 66، وما بعدها، وأيضا: أحمد مومن: اللسانيات (النشأة والتطور)، ص: 123، وما بعدها).

- 43- حنون مبارك: مدخل للسانيات سوسير، ط.1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء-
المغرب، ط.1، 1987، ص: 22.
- 44- ينظر: مصطلح:
- linguistique - (dictionnaire de linguistique). jean Du bois et autres. dépôt légal -
2001.Italie. P: 285 - 286 .
- 45- محاضرات في الألسنية العامة، ص: 17.
- 46- جون ليونز: نظرية تشومسكي اللغوية، تر: حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، مصر،
1995، ص: 40، وما بعدها.

